نظرية المعرفة

وعلاقتها بالفلسفة والتصوف

بقلم محرر المجلة

— ٢ —

نشأة المعرفة

حدثتك فى الجزء الأول عن لفظ المعرفة لغة واصطلاحا ، ووعدتك بالتحدث عن تدرج النظرية ونشأتها فنقول :

عند مابرز الأنسان إلى هذا الوجود ، ورأى نفسه محاطا بمختلف الكائنات . تولته الدهشة مما يرى وأخذه العجب مما يسمع ، فاختلط عليه الأمر ، ولم يستطع تمييز الحابل من النابل ، أو التفريق بين المحسوس والملموس . وبما أنه بطبعه محب للاستطلاع وبغريزته ميال إلى الفهم . فقد حاول منذ بداءة أمره أن يستطلع أسرار الكون ، ويتعرف حقائقه ، و يتفهم خوافيه ، على أنه أخذته الدهشة فساءل نفسه من أين أتى ، وماذا يرى ، و إلى أين ينتهى ؟

تلك أسئلة ثلاثة ما تزال لغزا معقدا ، وما يزال الناس يتلمسون السبل لحلها ، و يتخيرون الطرق للوصول إليها ، ومافتئت بالرغم من دقتها لغة الكون إلى الآن ، ومذهب الوجود حتى الساعة ، وأقصد من ذلك أنها ما تزال لغة كل إنسان ، ومذهب كل من لم تثقفه الديانات

فالأنسان فى التحقيق — يحس من نفسه الجهل بما يحيط به لأول وهلة . فيأخذ فى تصور ظواهر الأشياء ليكون له فيها رأيا . ثم يجتهد فى تعرف عللها ، وتفهم علاقاتها بظواهرها ، وهذا كله ما كان يعمله الأنسان منذ شعر بأنه موجود . على أنه شك فنظر . وفكر فاعتقد . ثم حقق فعرف الحق . فأضحى عارفا بما رأى .

ونقول إنه حقق بعد أن اعتقد لأن كل ما يعتقده الأنسان لا يعد حقا إلا بعد التحقيق لما قد يكون بنى عليه البحث من تأمل عقيم أو معرفة ناقصة

تجرنا هذه المسألة إلى مسألة أخرى هى : أى الأشياء الخمسة كانت أول ما عرفه الأنسان فى تاريخ الفكر البشرى ؟ أهو العلم ؟ أم الدين ؟ أم الفلسفة ؟ أم الفن ؟ أم الأدب ؟

يختلف الناس فى هذا اختلافا كبيرا ، على أنه — فى الحق — خلاف لا يقدم قليلا ، ولا يؤخر كثيرا . ومهما يكن من خلاف ، فأنا نرى أن الفلسفة هى أولى الأشياء الخمسة ، ودليلنا على هذا أن أول ما صادف الأنسان هو الدهشة ، والدهشة كما يقول أرسطوطاليس : أول باعث على الفلسفة ، وبدليل ثان هى تلك الأسئلة التى ساءل الأنسان بها نفسه ، وهل تقوم الفلسفة إلا على تلك الأسئلة نفسها ؟ وبعبارة أخرى هل يوجد فى الفلسفة ماهو أشد تعقيدا من تلك الأسئلة نفسها ؟ وهاك دليلا ثالثا فى منتهى البساطة لايحتاج إلى تعمل فكر أو إنعام نظر . ذلك هو ماتراه من الطفل يجبهك بالسؤال المعقد تلو السؤال الملغز ، فلا تستطيع له إجابة ، ولا تقدر على إقناعه إلا هربا ، وتخال نفسك عاجزا بأزاء إنسان متفلسف ، درس من الفلسفة أعوصها ومن الحياة بواطنها . أليس كل ماتقدم كافيا ليثبت لنا أن أول عهد للأنسان بالأشياء هو الفلسفة ؟ أوليست الفلسفة صورة من صور المعرفة التى يقوم عليها بنيانها ؟

وإذا كان الأنسان كما قلنا شك فنظر فهل يكون النظر فيما يشك فيه إلا فلسفة ؟

ننتقل إلى مسألة أخرى تلك مسألة العلم ، ونحن نرى أن العلم يتبع الفلسفة فى الترتيب ، فهو إذن الصورة الثانية من صور المعرفة ، ودليلنا على هذا هو أن الأنسان فى بدء عصره حينما رأى جذع الشجرة يحترق إذا ما اندلعت فيه النار علم أن قوام الشجر مادة قابلة للاحتراق ، ومن ثم علم أن جسمه — كمادة تتكون من جماد ، ونبات ، وحيوان — قابل للاحتراق أيضا

وعند ما علم أن العصا يغرسها فى الأرض فتصل إلى طبقة أرضية تخالف طبقة السطح ، علم أن هنا لك طبقة أخرى أو عالما آخر يخالف عالم الأرض ذلك هو عالم الماء ، وهل هذا إلا علم طبقات الارض أو (جيولجيا) باليونانية ؟ كذلك عند ما أخذ يسير إلى العين أو البئر يستسقى منها ، علم أن هناك مناطق أخرى غير المنطقة التى يعيش فيها أو الغار الذى يسكنه ، وعند ما رآى النجم يظهر ويختفى والسماء تمطر وتبرق ، علم أن هنا لك عالما من الكواكب ، وأجراما من الأفلاك تتطلب البحث والنظر ، وهل هذا إلا العلم نفسه ؟

ننتقل إلى مارى ترتيبه ثالثا ، وذلك فى نظرنا هو الدين ، والدين كما قدمت (فى الجزء الأول) صورة من صور المعرفة التى لا تتحقق إلا به ، وتلك الصورة ما كان ترتيبها إلا فى المرتبة الثالثة ، وذلك لأنها نتيجة الاعتقاد ، وما كان الاعتقاد إلا نتيجة البحث . على أن الدين لم يعرف كصورة من الصور البارزة إلا فى عصور الأنبياء المرسلين ، وإذا كان قدعرف قبل هذا فأن تاريخه على مانظن يرجع إلى تاريخ (طاو) وهو أول من وضع شريعة لأتباعه الطاويين فى الصين ، وذلك قبل الميلاد بأكثر من ثلاثين قرنا . وكذلك فى عهود الكتب الهندية والفارسية المقدسة كالفيدا والأفستا وغيرهما . ثم جاء البابليون ، والمصريون القدماء بعباداتهم التى تمثلوها فى الأصنام والتماثيل وغير ذلك من صور ، فكان كل هذا نتيجة تفلسف وتعلم . ونود أن نلفت القراء الى معنى الصورة البارزة الذى نقصده . وإلا فأن آدم عليه السلام وهو أول نبى خلقه الله ليعرف به ، ومعرفة الله تعالى لا تتم بغير الدين .

ننتقل الى النقطة الرابعة فنقول : استتبع الدين لتأييده فى النفوس واستقراره فى القلوب أن يتلمس صورا وأشكالا تخيلها الكهنة فى إقامة الهياكل والمعابد والأصنام ، فكانت تلك المظاهر بذور الفن وجرثومته الأولى ، وإذن فقد كان الفن بعد الدين مباشرة

على أن الأنسان حاول أن يظهر ماتكنه نفسه من شعور نحو هـذا الفن المعهود ، و يسر بمـا يتمثله فى ذات نفسه إلى ذلك الأله الممثل فى الصنم . فكان الشعر ، وكان النثر ، وكانت الأساطير ، وكانت إليازة هوميروس ، وأودساه ، وهما أثران يثبتان لنا ما اعترك فى النفوس من تخيلات فى آلهـة الخير والشر والقوة والجمـال . فأنت تسمع اسم أپولون ، وأفروديت ، والزهرة وغير ذلك من أسماء ومسميات

نستخلص من كل ما تقدم أن التاريخ الفكرى للمعرفة ابتدأ بالفلسفة ، فالعلم ، فالدين ، ثم الفن ، فالأدب . ذلك هو تاريخ مقومات النظرية فى نظرنا نحن ، وندع رأى الغير جانبا حتى تقوم لنا الأدلة على صحته

بقى الـكلام على التصوف . ونرى أنه باعتباره « المعرفة العليا » يتطلب منا بحثا بل بحوثا خاصة نطارقها فى المستقبل إن شاء الله

و بقى أن نعرف كيف نشأ الخلاف فى صور المعرفة ، وفى طبيعتها ، وفى حدودها ، و فى طرق تحصيلها ، ونجيب على هـــذا فنقول . إن أول من سبب الخلاف فى تلك النظرية إنمـا هم فلاسفة اليونان ، ويرجع هـذا الى أنهم كانوا ينظرون إلى الأمور بنظر يفوق نظر السذج ، ويتدبرون المسائل بفكر يفوق أفكار العامة من الناس . فكان ثمة اختلاف ، وكان تباين وتضارب ، ومن ثم قام الخلاف على مايأتى . إذا كان مايراه إنسان بعقله حقا فلماذا يراه آخر باطلا ؟ و إذا كان الأنسان يرى أن الباعث له على تطلب المعرفة إنمـا هو سد حاجيات النفس ، و إشباع شهوته الجسدية . فلمـــاذا يتطلبها آخر لأشباع غريزة حب الاستطلاع ، و إرواء ظمأ نفسه المتعطشة الى العلم ؟

و إذا كان العقل الذى يرى أن العددين يكونان اثنين ، وقد تلائم مع العقول المختلفة ، و تواضع مع الأفهام المتباينة على ذلك . فكيف إذن يكون الخلاف فى النظر إلى صور المعرفة ؟

ذلك ما نرجىء القول فيه الى فرصة أخرى والله المستعان ؟ المحرر